وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

بقلم الدكتور الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني:

من علامات تخلف الأمم وانهيارها نحو الحضيض: طعن أفرادها في مبادئ دينهم وأسس هويتهم، وهذا أبعد مدارك الجهل، وأسوأ علامات الانحطاط. وقد وصف الله تعلى قوما بذلك فقال: ***{يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المومنين فاعتبروا يا أولي الابصار}***. وذكر نبينا صلى الله عليه وسلم وعلى آله فيما رواه عنه الثقات أن من علامات الساعة: "أن يسب آخر الأمة أولها".

ولذلك فقد تأسفنا غاية الأسف لما قرأناه في صحيفة "الأحداث المغربية" في أعداد متتالية من تعرض كاتبة لعَلَم السنة النبوية، وجامع الآثار المحمدية الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رضي الله عنه وكتابه "الجامع الصحيح"؛ وهي خديجة البطار. وكأن البخاري وكتابه وعلم السنة والأثر ككل بقوا في حاجة إلى الانتقاد والإصلاح، وبقيت الأمة الإسلامية في غشاوة عن أخطائهم حتى يظهر في آخر الزمان الجهال والملاحدة ليظهروا لنا قيمة أعلامنا ومدى أخطائهم وتخبطاتهم (...).

في هذا المقال المقتضب لن أتعرض للفرعيات التي بحثت فيها – أو بالأصح: تقحمتها – خديجة البطار؛ فللعلم رجاله الذين نناقشهم ونباحثهم، أما غير العلماء فالمجال معهم آخر..

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

غير أنني أود التنبيه هنا إلى أمور يجب أن يعيها كل من يكتب عن التاريخ الإسلامي؛ خاصة تاريخ السنة النبوية ورجالاتها؛ خاصة الأعلام والكتب والأحاديث التي تلقاها أعلام الإسلام بالقبول:

الطعن في "صحيح البخاري" طعن في رسول الله ع:

فأولا: الإمام البخاري لا يكاد يتكلم في كتابه إلا بالكاد، بل لا يكاد يبدي رأيه إلا في عناوين الكتب والأبواب والفصول التي بنى عليها كتابه "الجامع الصحيح". وما سوى ذلك كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله، وبعض شروحات وإيضاحات للحديث من كلام كبار الصحابة أو التابعين وأتباعهم. وهذا الجزء لا يكاد يبلغ حتى ٥ في المائة من الكتاب. وبذلك فإن الطاعن في كتاب البخاري إنما هو طاعن في رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله من حيث قصد ذلك أو لم يقصد...

لا يمكن الطعن في الإمام البخاري فقد أسند:

ثانيا: البخاري – رضي الله عنه – عند إيراده للأحاديث لا يذكرها في الأغلبية الساحقة إلا مسندة بالسند المتصل منه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومعروف في علم الحديث أن من أسند فقد أعذر لنفسه؛ إذ يبقى مبنى الحديث من حيث الصحة والقبول أو الضعف والرفض على سنده، وطبقات رجال الإسناد. وقد خصص لهذا المجال عدة علوم واسعة جدا؛ وهي: علم مصطلح الحديث، وعلم الرجال، وعلم الجرح والتعديل، وعلم العلل... كل هذه العلوم قعد لها وأسسها علماء الإسلام حماية للسنة النبوية أن تضيع وتحرف كما هو الشأن في التوراة والإنجيل، وذلك لقبول أو رفض الحديث بناء على سنده ونقلته إلينا، وألفت فيه الآلاف المؤلفة من الكتب جلها مطبوع موجود في المكتبات.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وبذلك؛ فلا يمكن لمز الإمام البخاري – رضي الله عنه – على أي حال من الأحوال بحديث ذكره في كتابه؛ لأنه أسند أكثر من ٩٠ في المائة من الأحاديث التي أوردها، حاشا أحاديث معلقة (بدون إسناد) أوردها كشواهد لا من أساس كتابه، تبارى أئمة الحديث في وصلها ومن طرق عدة؛ فلم يبق في كتابه معلق أساسا، ومن أشهر أولئك الأئمة الحافظ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني في شرحه للبخاري المسمى "فتح الباري" وهو مطبوع.

الأحاديث المناقشة في "الصحيح" نادرة، وليست لذاتها:

ثالثا: على فرض مخالفة حديث صحيح الإسناد للقرآن الكريم أو أحاديث صحاح أخرى أو للعلم القطعي البحت؛ فهناك علوم ابتكرها العلماء وأسسوها وقعدوا لها مختصة بالجمع بين الأحاديث المتعارضة، والناسخة والمنسوخة، وبيان المدرج من الحديث (وهو كلام الراوي الذي أدرج خطأ في متن الحديث النبوي)؛ كعلم الأصول الذي هو زبدة علم الحديث في نظري، وكذا علم "علل الحديث" وغيرهما، وقد ألفت فيهما كذلك آلاف المؤلفات على مدى التاريخ، وإلى الآن مازال العلماء يؤلفون في ذلك. فيبقى آخر عمل هو: رد الحديث الصحيح بعد عدم وجود جابر يجبره، وهذا من اختصاص أئمة النقد الحديثي الذين تضلعوا من العلوم سابقة الذكر معرفة وممارسة. كل هذا تقديسا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرد خطأ.

ثم إن الأحاديث التي انتقدت على الإمام البخاري في هذا المضمار لا يبلغ جميعها عشرين حديثا، بل أقل من ربع هذا العدد. وقد تكلم كبار العلماء في هذا الأمر موافقة ومخالفة؛ كالأئمة الدارقطني في كتابه "الاستدراكات والتتبع" وأبي السعود الدمشقي، وأبي علي الغساني...وغيرهم. وغالب استدراكاتهم الأخرى على الرواة لا على المتون، ومعلوم أن الحديث الواحد ربما يروى بعشرات الأسانيد كما هو الحال في حديث: "من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار". وانتقدوا عليه في الغالب خلاف الأولى، وعدم التزامه شرطه في بعض الأحاديث. لا صحة الحديث بعينه.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بل إنه من حوالي مائتي حديث انتقدت على الإمام البخاري (وكتابه يضم ٧٣٩٧ حديثا سوى المعلقات والشواهد والمتابعات) إنما طعن في صحة بضعة عشر حديثا فقط، رد العلماء على الطاعنين فيها بالأدلة القوية، والشواهد الكثيرة من طرق الإسناد غير الموجودة في "الجامع الصحيح" والموجودة في غيره. وقد تكفل بجميع ذلك الحافظ ابن حجر في "فتح الباري"، وغيره عشرات من العلماء والشراح.

وجوب التزام الأدب والحيطة عند مناقشة الحديث النبوي:

رابعا: عند حديثنا عن كتاب يضم كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفته وتشريعه وسيرته؛ وهو خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي امتلأ كتاب الله تعالى بتعظيمه، والذي أخرجنا من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن البداوة والظلم والإقطاع والطبقية إلى أن نكون سواسية بين يدي الله تعالى كأسنان المشط، إلى أن نوحد العبودية لله تعالى، وننشر الرحمة والعدالة بين الخليقة: "لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى"، عند كلامنا عن حديثه يجب أن نتكلم بأدب وخشوع ووقار، لأن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد مصدري شريعة الله تعالى الذي قال سبحانه: ***{وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا}***، وقال: ***{يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون}***.

فلا ننتقد حديثا بلغنا عنه صلى الله عليه وسلم ولا نشرحه بأهوائنا، بل نعمل القواعد العلمية من حيث صحة الإسناد وضعفه، ثم ننظر للمتن ونطبق عليه القواعد اللغوية والأصولية، ونبحث في كلام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين رباهم وفهموا حديثه، ثم تابعيهم، ثم أقوال أئمة الإسلام الذين حلوا مشكل الكتاب والسنة، ووضحوا الغامض، وسهلوا السبل.

وبعد ذلك إن بقي لدينا إشكال نبحث في فلسفة التشريع، والحكمة من ذلك النص أو الحكم الشرعي. هذا إن كنا علماء؛ وإلا فقد قال تعالى: ***{ولو ردوه إلى الرسول و إلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم}***.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لا أن نعترض من أول وهلة، ونسفه ونستهزئ ونتهكم. لا. لا. هذا ليس من التدين ولا العلم، بل ولا العلم المجرد الموضوعي في شئ؛ إنما هو طعن في مقدسات الإسلام، بل طعن في العقل البشري كل؛ لأن من أساسات المعرفة: التدرج من المستوى الإحساسي؛ وهو: الإحساس (الاطلاع، الرؤية..إلخ)، ثم الإدراك ثم التصور، ومن ثمة المستوى الثاني وهو العقلي: المفهوم ثم الحكم ثم القياس (الاجتهاد)، أما الوصول إلى الحكم أو القياس من أول المطاف؛ فهذا تخبط...

أحاديث البخاري تلقتها الأمة بالقبول وكلها صحيحة:

خامسا: صحيح البخاري تلقته الأمة كلها بالقبول، وحتى ما اختلف في صحته إنما اختلف من حيث اللفظ لا المعنى، سوى ألفاظ يسيرة ضمن بعض المتون، ولا يكاد ينبني عليها عمل.

قال الحافظ ابن حجر في الفصل الثامن من مقدمة "فتح الباري" (٢: ٨١): "ينبغي لكل منصف أن يعلم أن هذه الأحاديث (أي أحاديث صحيح البخاري التي انتقدت عليه) وإن كان أكثرها لا يقدح في أصل موضوع الكتاب؛ فإن جميعها وارد من جهة أخرى، وهي ما ادعاه الإمام أبو عمرو ابن الصلاح وغيره من الإجماع على تلقي هذا الكتاب بالقبول والتسليم لصحة جميع ما فيه، فإن هذه المواضع متنازع في صحتها، فلم يحصل لها من التلقي ما حصل لمعظم الكتاب. وقد تعرض لذلك ابن الصلاح في قوله: إلا مواضع يسيرة انتقدها عليه الدارقطني وغيره. وقال في "مقدمة شرح مسلم" له: ما أخذ عليهما – يعني: على البخاري ومسلم – وقدح فيه؛ معتمد من الحفاظ، فهو مستثنى مما ذكرناه لعدم الإجماع على تلقيه بالقبول" انتهى.

أي: إن ما انتقدوه إنما هو مسلم من الحفاظ (وهم الطبقة المجتهدة من المحدثين) وبذلك لا يسلم انتقاد من انتقد على البخاري أولا، ولا يعد ذلك المنتقد عليه من الصنف الذي أجمع على صحته، وإن كان جمهور الحفاظ على صحته، وورد من طرق أخرى كثيرة غير البخاري.

This file was downloaded from QuranicThought.com

مقدار الإمام البخاري أعلى من القدح فيه:

ولا يخفى على خديجة البطار وغيرها أن أول كتاب قصد منه مؤلفه جمع صحيح الأخبار هو "الجامع الصحيح" للبخاري، ثم تبعه عصريه الإمام الدارمي وتلميذه الإمام مسلم، ثم الإمام الترمذي وهكذا. فللإمام البخاري السبق في عزل الأحاديث التي توصل بحثه إلى صحتها عن غيرها، وشرطه في ذلك مبسوط في كتب مصطلح الحديث.

ولذلك؛ فإن الإمام البخاري إمام الصناعة الحديثية، وعالم مجدد من أعظم أعلام الإسلام، فلا يليق بأي حال من الأحوال أن نلمزه ونقدحه وهو قد أسدى لأمتنا وديننا هذه المنة العظمى بتلاميذه ومؤلفاته وكتبه ومواقفه الجريئة في نشر الإسلام ونصرته، ولو لم يكن من فضله سوى أنه أوقف حياته على خدمة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لكفى:

وإذا كان الجناب عظيما مُد منه لخادميه لـواء
وإذا عظمت سيادة متبو ع أجل أتباعه الكبراء

ونحن في الوقت الذي نجد فيه الغربيين الذين لم تمتد حضارتهم لأكثر من مائتي عام، قامت على مآسي ودماء وأشلاء غيرهم من الأمم؛ نجدهم يعظمون فلاسفتهم وعلماءهم وهم لم يخدموا دينا سماويا ولم يعرفوا في مجملهم بالاستقامة الأخلاقية، بل معظم أوائلهم سرقوا نظرياتهم من علماء وفلاسفة المسلمين كنيوتن ووالاس وكانط وديكارت...إلخ، في نفس الوقت يطعن كتابنا في أناس لولا انقطاع النبوة لكانت فيهم، وحق للإنسانية جمعاء بمسلميها وغيرهم أن يعظموهم لما أسدوا لها من المنن.

ولذلك عظم آباؤنا وأجدادنا الإمام البخاري وأمثاله يوم كنا سادة الدنيا، ونشروا كتبهم وتدارسوها، وألفوا على منوالها، وتخلقوا بما فيها، وأسسوا واستنبطوا القوانين الإسلامية التي بها سادوا العالم ونشروا فيه حضارة لا تفرق بين المجتمعات والأمم، انخرط الناس فيها عن محبة وإقبال أفواجا أفواجا، وحق فيهم قول الله تعالى: ***{كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}*** لمدة ألف عام أو أزيد.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

خطأ ادعاء أن السلفيين هم من فرض "صحيح البخاري":

سادسا: قال الأوائل: من كتب فقد عرض عقله على الناس. وقالوا: المرء مخبوء تحت لسانه؛ تكلموا تعرفوا. فعلى خديجة البطار وغيرها أن يبنوا كلامهم على أسس علمية دقيقة ورزينة، قبل عرضه على الناس؛ حتى لا يصبحوا أضحوكة بين الصغار، ومعرة عند الأجانب.

والحديث عن أن السلفيين هم الذين فرضوا صحيح البخاري وذبوا عنه حربا على المعتزلة وفرقهم؛ ضرب من الهذيان. لأن السلفية تيار حديث أولا، لم يكن في القرن الهجري الأول فما بعده، ولأن مذهب المعتزلة مبني على العقل لا على النص، فالمعتزلة مكتفون بكتب أفلاطون وأرسطو عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. ولازم كلامهم في كتبهم هو ذلك. بل يصرحون به. فالمعتزلة يرجعون في أقوالهم إلى كتب المنطق والكلام والفلسفة؛ لأن مبدأ الدين عندهم مبني على العقل، أما المسلمون فهم يعبدون الله باعتماد قرآنه وهدي نبيه.

إنهم يعبدون الله تعالى بشريعته التي فرضها على الخلائق، فهم يتوصلون إلى معرفة الله تعالى بالعقل والتأمل في مخلوقات الله تعالى أولا، ثم يرجعون بعد معرفته تعالى ومعرفة رسوله صلى الله عليه وسلم إلى كلامه وسنة رسوله، فجمعوا بين العقل والنص، وزكوا المعرفة العقلية بالمعلومات الإلهية، وبذلك اضطروا لجمع القرآن الكريم والحفاظ عليه، ولم يقم بذلك المعتزلة، ثم تدوين حديث رسول الله وتنقيحه والحفاظ عليه، وتطبيق أعظم وسائل التثبت والتوثيق التي ابتكرتها البشرية مذ أوجدت، ولم يقم بذلك المعتزلة، تلك الوسائل الممثلة في علم الإسناد الذي ابتكره المسلمون دون غيرهم من الأمم جمعاء. وفي نهاية المطاف لم يهملوا علوم الفلسفة والمنطق والعقليات، بل كانوا روادها على مستوى الإنسانية جمعاء. ولا يخفى مقام ابن رشد والرازي والغزالي بين الأمم.

فالحديث هو علم أهل السنة والجماعة، الذين هم الأغلبية الساحقة والنخبة من المسلمين.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أما المعتزلة؛ فلم يعرفوا الحديث إلا بعد أن فض جرابهم من العلم الحقيقي الذي هو كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وكلام رسوله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. حتى قيل فيهم – أي: المعتزلة وأشباههم من الفرق الأخرى: "أعيتهم الآثار أن يحفظوها فتكلموا بالرأي..". إذ كان الضبط العلمي في تلك الفترة في أعلى درجاته.

فحاولوا – أي: المعتزلة – الاتحاد مع الفرق الباطنية من الشيعة وغيرهم (كما ذكر ذلك ابن أبي الحديد المعتزلي في مقدمة شرحه لنهج البلاغة)، ثم ابتكروا كتبا ألفت في القرنين الثالث والرابع يكفي مطالعتها لمعرفة كثرة التخبط والزيغ فيها؛ مثل كتاب "الكافي" للكليني، وكتاب "من لا يحضره الفقيه" لابن بابويه القمي وغيرذلك من الكتب التي أغلب رجالات أسانيدها – كما حققه علماؤهم أنفسهم كأبي القاسم الخوئي في كتابه الكبير في رجال الشيعة، وآية الله البرقعي في "كسر الصنم "، وأحمد بن علي النجاشي في كتابه في "الرجال" – وضاعون وكذابون ومجهولون، وليسوا من أهل هذا الشان. ثم جعلوا كتاب الكليني مضاهيا لصحيح البخاري:

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامــها كل مفلس

أنصح خديجة البطار وأمثالها ممن لم يطلعوا على تاريخ التشريع الإسلامي وأصوله، وتاريخ التدوين، والسيرة النبوية، وسير السلف الصالح أن يطلعوا على ذلك، وأن لا يضللوا الرأي العام بكتابات زائفة غير مبنية إلا على الظنون والأوهام، وتقليد الأوروبيين وزنادقة المشرق في اتجاهاتهم الفكرية الفلسفية. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: "لا تكونوا إمعة؛ إذا أحسن الناس أحسنتم وإذا أساؤوا أسأتم".

والمس في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والصحابة الذين نقلوها لنا، وأئمة الحديث النبوي الذين جمعوها لنا ونقحوها، وأعلام الفقه الذين بينوه ووضحوه لنا شبيه بالمس في الحمض النووي للخلية الحية، بمعنى أنه تهديد صريح لديننا الذي ندين الله به؛ وهو: الإسلام...

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ولتعلم خديجة البطار وأمثالها بأن المغرب قد أسسته البضعة النبوية الطاهرة؛ وهي: مولاي إدريس رضي الله عنه، وهو محفوظ في إسلامه وأعلامه، لا يضره كيد الكائدين، ولا ضير الضائرين، { ***وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون...***}. صدق الله العظيم.

This file was downloaded from QuranicThought.com